ملخص

في علوم القرآن

إعداد

محمود خليل العقلي

علـوم القـرآن

العلوم المستنبطة من القرآن

– قال تعالى { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }

وقال سبحانه { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ }

– وقال النبي ﷺ (ستكون فتن) ، قيل : وما المخرج منها ؟

قال (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم)

– و عن ابن مسعود قال : (من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين) قال البيهقي يعني أصول العلم

– و عن الحسن قال : (أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان)

قلت ويؤيد هذا قوله ﷺ (إني لا أحل إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه)

– وقال بن جبير (ما بلغني حديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله)

– وقال ابن مسعود (إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى)

– وقال الشافعي : (جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن)

– وقال أيضا (جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن)

– وقال الشافعي أيضا (ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها فإن قيل من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة قلنا ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول وفرض علينا الأخذ بقوله)

– وقال الشافعي مرة بمكة (سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله

فقيل له ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟

فقال بسم الله الرحمن الرحيم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)

وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال (اقتدوا باللذين من بعدي أبو بكر وعمر)

وحدثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب (أنه أمر بقتل المحرم الزنبور)

• وأخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد فقالت له إنه بلغني أنك لعنت كيت كيت فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول الله وهو في كتاب الله تعالى فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه كما تقول
قال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } قالت بلى قال فإنه قد نهى عنه

• وحكى ابن سراقة في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوما ما شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله . فقيل له : فأين ذكر الخانات فيه ؟
فقال في قوله { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ } فهي الخانات

• وقال ابن برجان ما قال النبي من شيء فهو في القرآن به أو فيه أصله قرب أو بعد فهمه من فهمه وعمه عنه من عمه وكذا كل ما حكم به أو قضى وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه

• وقال غيره ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله
حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ثلاثا وستين سنة
من قوله في سورة المنافقين { وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا } فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده

• وقال ابن الفضل المرسي في تفسيره جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان .
ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه

فاعتنى القراء: بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسموا القراء

واعتنى النحاة: بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة

واعتنى المفسرون: بألفاظه فوجدوا منه لفظا يدل على معنى واحد ولفظا يدل على معنيين ولفظا يدل على أكثر فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسموا هذا العلم بأصول الدين . (العقيدة)

• وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص "الاجتهاد" والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن (أصول الفقه)

• وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا
وسموه بـــ (علم الفروع) وبـــ (الفقه) أيضا

• وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بـــ(التاريخ والقصص)

• وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال وتكاد تدكدك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر
فسموا بذلك (الخطباء والوعاظ)

• واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان وفي منامي صاحبي السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة وسموه (تعبير الرؤيا)

واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله" {وأمر بالعرف }
• وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا. (المواريث والوصايا)

• ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه (علم المواقيت)

• ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك
فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع. (علم البلاغة)

• ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاما اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه

وقال القاضي: - أبو بكر بن العربي - : [ظهر ، وبطن ، وحد ، ومطلع (٣٢٨)]
وأما علوم القرآن فثلاثة : (توحيد وتذكير وأحكام)
- فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله
- والتذكير منه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن
- والأحكام منها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب

ولذلك كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقسام الثلاثة وسورة الإخلاص ثلثه لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة وهو التوحيد.

وقال ابن جرير: القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء : (التوحيد والأخبار والديانات)
ولهذا كانت سورة الإخلاص ثلثه لأنها تشمل التوحيد كله.

قال الغزالي وغيره: آيات الأحكام خمسمائة آية ، وقال بعضهم مائة وخمسون .
قيل : ولعل مرادهم المصرح به
فإن آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل ، وأصول الصنائع

وإليك بيانه

علوم الأوائل

مِثْلَ الطِّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْجَدَلِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالنِّجَامَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

الطب	أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة وذلك إنما باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة . وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: {وكان بين ذلك قواما} . وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: { شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس } ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.
الهندسة	وأما الهندسة ففي قوله: { انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب } الآية.
الهيئة	وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.
الجدل	وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.
الجبر والمقابلة	وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض
النِّجامة	وأما النِّجامة ففي قوله: {أو أثارة من علم } فقد فسَّره بذلك ابن عباس.

أصول الصنائع

الخياطة	في قوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ}
الحدادة	{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} ؛ {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} الْآيَةَ
البناء	في آيات . منها {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا }
النجارة	{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا}
الغزل	{نَقَضَتْ غَزْلَهَا}
النسج	{كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً}
الفلاحة	{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} الْآيات
الصيد	في آيات منها {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ}
الغوص	{كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً}
الصياغة	{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً}
الزجاجة	{صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ} {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ}
الفخارة	{فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ}
الملاحة	{أَمَّا السَّفِينَةُ} الآية
الكتابة	{عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}
الخبز	{أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً}
الطبخ	{بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}
الغسل والقصارة	{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} قال الحواريون: وهم القصار ون
الجزارة	{إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ}
البيع والشراء	في آيات . منها {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ }
الصبغ	{صِبْغَةَ اللَّهِ} ؛ {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ}
الحجارة	{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً}
الكيل والوزن	في آيات . منها {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ}
الرمي	{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} ، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}

أمثال القرآن

قال تعالى {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} وقال {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ }

وأَمْثَالُ الْقُرْآنِ قِسْمَانِ: ١- ظاهر مصرح به ٢- وكامن لا ذكر للمثل فيه

فمن الظاهر :

١- { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } الآيات (١)

٢- { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ... } (٢)

٣- { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ... }(٣)

٤- { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ ...} (٤)

---

(١) ضرب فيها للمنافقين مثلين (مثلا بالنار ، ومثلا بالمطر)
أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه {وتركهم في ظلمات} بقول في عذاب {أو كصيب} هو المطر ضرب مثله في القرآن {فيه ظلمات} يقول: ابتلاء {ورعد وبرق} تخويف {يكاد البرق يخطف أبصارهم} يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين {كلما أضاء لهم مشوا فيه} يقول كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزا اطمأنوا فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله: {ومن الناس من يعبد الله على حرف} الآية.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الزبد فيذهب جفاء وهو الشك {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} وهو اليقين كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.
وأخرج عن عطاء قال: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.
وأخرج عن قتادة قال: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار فأذهب خبثه كذلك يبقى الحق لأهله، وكما اضمحل خبث هذا الذهب حين أدخل في النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله

(٣) أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمرها طيب ، والذي خبث ضرب مثلا للكافر كالبلد السبخة المالحة والكافر هو الخبيث وعمله خبيث

(٤) أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت: {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب} ؟ قالوا: الله أعلم فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال: ابن عباس في نفسي منها شيء فقال: يا بن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل قال عمر: أي عمل قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله

ومن الكامن : [١]

خير الأمور أوساطها	١- {لَا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} ٢- {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} ٣- {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} ٤- {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}
مَنْ جَهِلَ شَيْئًا عَادَاهُ	١- {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} ٢- {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}
احْذَرْ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ	{وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ}
لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ	{أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}
فِي الْحَرَكَاتِ الْبَرَكَاتُ	{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً}
كَمَا تَدِينُ تُدَانُ	{مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}
حِينَ تَقْلِي تدري	{وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً}
لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ	{هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ}
مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سُلِّطَ عَلَيْهِ	{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}
لَا تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً	{وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً}
لِلْحِيطَانِ آذَانٌ	{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}
الْجَاهِلُ مَرْزُوقٌ وَالْعَالِمُ مَحْرُومٌ	{مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً}
الْحَلَالُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا وَالْحَرَامُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا جُزَافًا	{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ.}

(١) قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول:
سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله ...

فَائِدَةٌ

عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب بابا في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل وأورد من ذلك قوله تعالى:

١	{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}	١٤	{مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ}
٢	{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}	١٥	{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}
٣	{الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}	١٦	{هَلْ جَزَاءُ الأَحْسَانِ إِلاَّ الأَحْسَانُ}
٤	{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ}	١٧	{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً}
٥	{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ}	١٨	{آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}
٦	{قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}	١٩	{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}
٧	{أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}	٢٠	{وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}
٨	{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}	٢١	{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}
٩	{لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ}	٢٢	{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ}
١٠	{وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ}	٢٣	{وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}
١١	{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}	٢٤	{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}
١٢	{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}	٢٥	{قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ}
١٣	{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}	٢٦	{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}

أقسام القرآن

الْقَصْدُ بالقسم تحقيق الخبر توكيده حَتَّى جَعَلُوا مِثْلَ: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} قَسَمًا وَإِنْ كَانَ فِيهِ إِخْبَارٌ بِشَهَادَةٍ لِأَنَّهُ لَمَّا جَاءَ تَوْكِيدًا لِلْخَبَرِ سُمِّيَ قَسَمًا

وَقَدْ قِيلَ: مَا مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْهُ تَعَالَى ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْمُؤْمِنِ فَالْمُؤْمِنُ مُصَدِّقٌ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ مِنْ غَيْرِ قَسَمٍ وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْكَافِرِ فَلَا يُفِيدُهُ !

وَأُجِيبُ : بِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَمِنْ عادتها القسم إذا أرادات أَنْ تُؤَكِّدَ أَمْرًا

وَأَجَابَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ بِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الْقَسَمَ لِكَمَالِ الْحُجَّةِ وَتَأْكِيدِهَا

وَذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ يُفْصَلُ بِاثْنَيْنِ: (إِمَّا بِالشَّهَادَةِ وَإِمَّا بِالْقَسَمِ)

فَذَكَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ النَّوْعَيْنِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ حُجَّةٌ

فَقَالَ: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ}

وَقَالَ: {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ}

وَعَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} صَرَخَ وَقَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْيَمِينِ!

و الْقَسَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْمٍ مُعَظَّمٍ وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ:

١- {قُلْ إِي وَرَبِّي}
٢- {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ}
٣- {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ}
٤- {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}
٥- {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ}
٦- {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}

وَالْبَاقِي كُلُّهُ قَسَمٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} ، {وَالصَّافَّاتِ} {وَالشَّمْسِ} {وَاللَّيْلِ} {وَالضُّحَى} {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ}

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَقْسَمَ بِالْخَلْقِ وَقَدْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنِ الْقَسَمِ بِغَيْرِ اللَّهِ ؟!

قُلْنَا أُجِيبَ عَنْهُ بِأَوْجُه:

أَحَدُهَا : أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ وَرَبِّ التِّينِ وَرَبِّ الشَّمْسِ وَكَذَا الْبَاقِي.

الثَّانِي : أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُعَظِّمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَتُقْسِمُ بِهَا فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى ما يعرفون .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْأَقْسَامَ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا يُعَظِّمُهُ الْمُقْسِمُ أَوْ يُجِلُّهُ وَهُوَ فَوْقُهُ وَاللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ شَيْءٌ فَوْقَهُ ، فَأَقْسَمَ تَارَةً بِنَفْسِهِ ، وَتَارَةً بِمَصْنُوعَاتِهِ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى بَارِئٍ وَصَانِعٍ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ : الْقَسَمُ بِالْمَصْنُوعَاتِ يَسْتَلْزِمُ الْقَسَمَ بِالصَّانِعِ
لِأَنَّ ذِكْرَ الْمَفْعُولِ يَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ الْفَاعِلِ إِذْ يَسْتَحِيلُ وُجُودُ مَفْعُولٍ بِغَيْرِ فَاعِلٍ

و عَنِ الْحَسَنِ قَالَ (إِنَّ اللَّهَ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِاللَّهِ)

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ: الْقَسَمُ بِالشَّيْءِ لَا يَخْرُجُ عَنْ وَجْهَيْنِ : (إِمَّا لِفَضِيلَةٍ أَوْ لِمَنْفَعَةٍ)

- فَالْفَضِيلَةُ كَقَوْلِهِ: { وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ }
- وَالْمَنْفَعَةُ نَحْوَ: { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }

وَقَالَ غَيْرُهُ: أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : (بذاته ، وبفعله ، وبمفعوله)

١- بِذَاتِهِ كَالْآيَاتِ السَّابِقَةِ {قُلْ إِي وَرَبِّي} ونحوها
٢- وَبِفِعْلِهِ نَحْوَ: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}
٣- وَبِمَفْعُولِهِ نَحْوَ: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} {وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ}

وَالْقَسَمُ : إِمَّا ظَاهِرٌ ، كَالْآيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَإِمَّا مُضْمَرٌ . وهو قسمان :

- قسم دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ نَحْوَ: { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ }
- وَقَسَمٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى نَحْوَ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} تقديره "وَاللَّهِ"

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِه: {لَعَمْرُكَ}

لِتَعْرِفَ النَّاسُ عَظَمَتَهُ عِنْدَ اللَّه وَمَكَانَتَهُ لَدَيْه

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَاخلق الله ولا ذَرَأَ وَلَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْه مِنْ مُحَمَّد ﷺ وَمَا سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِه قَالَ: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ الْأَلْفَاظُ الْجَارِيَةُ مَجْرَى الْقَسَمِ ضَرْبَان:

أَحَدُهُمَا: مَا تَكُونُ كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَيْسَتْ بِقَسَمٍ فَلَا تُجَابُ بِجَوَابِه

كَقَوْلِه: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا} {يَحْلِفُونَ لَكُمْ} وهذا وَنَحْوُهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا وَأَنْ يَكُونَ حَالًا لِخُلُوِّه مِنَ الْجَوَابِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَلَقَّى بِجَوَابِ الْقَسَمِ كَقَوْلِه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ} {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ}

وقال غيره: أكثر الأقسام في القرآن (المحذوفة الفعل) لا تكون إلا بالواو

فإذا ذكرت الباء أتي بالفعل كقوله: {وأقسموا بالله} {يحلفون بالله}

ولا تجد الباء مع حذف الفعل . ومن ثم كان خطأ مَنْ جعل هذه الآيات قسما

{ بالله إن الشرك لظلم } { بما عهد عندك } { بحق إن كنت قلته فقد علمته }

وقال ابن القيم:

اعلم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقْسِمُ بِأُمُورٍ عَلَى أُمُورٍ وَإِنَّمَا يُقْسِمُ بِنَفْسِه الْمُقَدَّسَة الْمَوْصُوفَة بِصِفَاتِه أَوْ بِآيَاتِهِ الْمُسْتَلْزِمَة لِذَاتِه وَصِفَاتِه وَإِقْسَامُهُ بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ دَلِيلٌ عَلَى أنها مِنْ عَظِيمِ آيَاته .

فَالْقَسَمُ إِمَّا عَلَى جُمْلَة خَبَرِيَّة وَهُوَ الْغَالِبُ كَقَوْلِه: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ}

وَإِمَّا عَلَى جُمْلَة طَلَبِيَّة كَقَوْلِه: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

مَعَ أَنَّ هَذَا الْقَسَمَ ، قَدْ يُرَادُ بِه تَحْقِيقُ الْمُقْسَمِ عَلَيْه فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ .

وَقَدْ يُرَادُ بِهِ تَحْقِيقُ الْقَسَمِ ؛ فَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ يُرَادُ بِالْقَسَمِ تَوْكِيدُهُ وَتَحْقِيقُهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَحْسُنُ فِيهِ وَذَلِكَ كَالْأُمُورِ الْغَائِبَةِ وَالْخَفِيَّةِ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى ثُبُوتِهَا فَأَمَّا الْأُمُورُ المشهودة الظَّاهِرَةُ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَهَذِهِ يُقَسِمُ بِهَا وَلَا يُقْسِمُ عَلَيْهَا ، وَمَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ الرَّبُّ فَهُوَ مِنْ آيَاتِهِ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُقْسَمًا بِهِ وَلَا يَنْعَكِسُ

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذْكُرُ جَوَابَ الْقَسَمِ تَارَةً وَهُوَ الْغَالِبُ وَيَحْذِفُهُ أُخْرَى كَمَا يُحْذَفُ جَوَابُ "لَوْ" كَثِيرًا لِلْعِلْمِ بِهِ

وَالْقَسَمُ لَمَّا كَانَ يَكْثُرُ فِي الْكَلَامِ اخْتُصِرَ فَصَارَ فِعْلُ الْقَسَمِ يُحْذَفُ وَيُكْتَفَى بِالْبَاءِ ثُمَّ عُوِّضَ مِنَ الْبَاءِ الْوَاوَ فِي الْأَسْمَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالتَّاءِ فِي اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ: {وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ}

قَالَ: ثُمَّ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

- يُقْسِمُ عَلَى أُصُولِ الْإِيمَانِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ مَعْرِفَتُهَا . (١)
- وتَارَةً يُقْسِمُ عَلَى التَّوْحِيد . (٢)
- وَتَارَةً يُقْسِمُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ . (٣)
- وَتَارَةً عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . (٤)
- وَتَارَةً عَلَى الْجَزَاءِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيد . (٥)
- وَتَارَةً يقسم على حال الإنسان . (٦)

(١) كَقَوْلِهِ: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}

(٢) كَقَوْلِهِ: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}

(٣) كَقَوْلِهِ: {يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} الْآيَاتِ

(٤) كَقَوْلِهِ: {وَالذَّارِيَاتِ} : إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} {وَالْمُرْسَلاتِ} إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ}

(٥) كَقَوْلِهِ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} الآيات

(٦) كَقَوْلِهِ: {وَالْعَادِيَاتِ} إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّ الأَنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} {وَالْعَصْرِ إِنَّ الأَنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} {وَالتِّينِ} إِلَى قَوْلِهِ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الأَنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} الْآيَاتِ {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} إِلَى قَوْلِهِ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الأَنْسَانَ فِي كَبَدٍ}

قَالَ: وَأَكْثَرُ مَا يُحْذَفُ الْجَوَابُ إِذَا كَانَ فِي نَفْسِ الْمُقْسَمِ بِهِ دَلَالَةٌ عَلَى الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ يَحْصُلُ بِذِكْرِهِ فَيَكُونُ حَذْفُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ أَبْلَغَ وَأَوْجَزَ .

كَقَوْلِهِ: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} فإنه في القسم بِهِ مِنْ تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ وَوَصْفِهِ بِأَنَّهُ ذُو الذِّكْرِ الْمُتَضَمِّنِ لِتَذْكِيرِ العباد ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَالشَّرَفِ وَالْقَدْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ وَهُوَ كَوْنُهُ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ غَيْرَ مُفْتَرًى كَمَا يَقُولُ الْكَافِرُونَ .

وَلِهَذَا قَالَ كَثِيرُونَ إِنَّ تَقْدِيرَ الْجَوَابِ "إِنَّ القرآن لحق"

وهذا مطرد فِي كُلِّ مَا شَابَهَ ذَلِكَ :كَقَوْلِهِ: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}

وَقَوْلِهِ: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْمَعَادِ

وَقَوْلِهِ: {وَالْفَجْرِ} الْآيَاتِ فَإِنَّهَا أَزْمَانٌ تَتَضَمَّنُ أَفْعَالًا مُعَظَّمَةً مِنَ الْمَنَاسِكِ وَشَعَائِرِ الْحَجِّ الَّتِي هِيَ عُبُودِيَّةٌ مَحْضَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَذَلٌّ وَخُضُوعٌ لِعَظَمَتِهِ وَفِي ذَلِكَ تَعْظِيمُ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

قَالَ: وَمِنْ لَطَائِفَ الْقَسَمِ قَوْلُهُ: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} الْآيَاتِ أَقْسَمَ تَعَالَى عَلَى إِنْعَامِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَإِكْرَامِهِ لَهُ وَذَلِكَ مُتَضَمِّنٌ لِتَصْدِيقِهِ لَهُ فَهُوَ قَسَمٌ عَلَى النُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَأَقْسَمَ بِآيَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ آيَاتِهِ .

وَتَأَمَّلْ مُطَابَقَةَ هَذَا الْقَسَمِ وَهُوَ نُورُ الضُّحَى الَّذِي يُوَافِي بَعْدَ ظَلَامِ اللَّيْلِ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ نُورُ الْوَحْيِ الَّذِي وَافَاهُ بَعْدَ احْتِبَاسِهِ عَنْهُ حَتَّى قَالَ أَعْدَاؤُهُ " وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبُّهُ "

فَأَقْسَمَ بِضَوْءِ النَّهَارِ بَعْدَ ظلمة اللَّيْلِ عَلَى ضَوْءِ الْوَحْيِ وَنُورِهِ بَعْدَ ظُلْمَةِ احْتِبَاسِهِ وَاحْتِجَابِهِ.

جـدل القرآن

قَالَ الْعُلَمَاءُ: قَدِ اشْتَمَلَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ وَمَا مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ وَتَقْسِيمٍ وَتَحْذِيرٍ يُبْنَى مِنْ كُلِّيَّاتِ الْمَعْلُومَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ إِلَّا وَكِتَابُ اللَّهِ قَدْ نَطَقَ بِهِ .

لَكِنْ أَوْرَدَهُ على عادة الْعَرَبِ دُونَ دَقَائِقِ طُرُقِ الْمُتَكَلِّمِينَ لأمرين:

أحدهما : بِسَبَبِ مَا قَالَهُ: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ }

والثاني: أن المائل إلى طريق الْمُحَاجَّةِ هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِالْجَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ فَإِنَّ مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُفْهِمَ بِالْأَوْضَحِ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْأَكْثَرُونَ لَمْ يَنْحَطَّ إِلَى الْأَغْمَضِ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْأَقَلُّونَ وَلَمْ يَكُنْ مُلْغِزًا

فَأَخْرَجَ تَعَالَى مُخَاطَبَاتِهِ فِي مُحَاجَّةِ خَلْقِهِ فِي أَجْلَى صُورَةٍ لِيَفْهَمَ الْعَامَّةُ مِنْ جليلها مَا يُقْنِعُهُمْ وَتَلْزَمُهُمُ الْحُجَّةُ وَتَفْهَمَ الْخَوَاصُّ مِنْ أَثْنَائِهَا مَا يُرَبَّى عَلَى مَا أَدْرَكَهُ فَهْمُ الْخُطَبَاءِ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ: (ينظر)

وَقَالَ: غَيْرُهُ اسْتَدَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى (الْمَعَادِ الْجُسْمَانِيِّ) بِضُرُوبٍ:

١- قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى الِابْتِدَاءِ [١]

٢- قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . [٢]

٣- قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ [٣]

٤- قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِخْرَاجِ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ [٤]

---

(١) كَقَوْلِهِ : {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ }

(٢) كَقَوْلِهِ : { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }

(٣) كَقَوْلِهِ : { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}

(٤) وقد رُوى أن أبي بن خلف جاء بعظم ففته فقال أيحيي الله هذا بعد ما بلي، فأنزل الله {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث .

ثم زاد في الحجاج بقوله: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا}

وهذه في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

٥- فِي قَوْلِه تَعَالَى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى} الآيتين وتقريرهما أَنَّ اخْتِلَافَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْحَقِّ لَا يُوجِبُ انْقِلَابَ الْحَقِّ فِي نَفْسِه وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ الطُّرُقُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَيْه وَالْحَقُّ فِي نَفْسِه وَاحِدٌ فَلَمَّا ثبت أن ها هنا حَقِيقَةً مَوْجُودَةً لَا مَحَالَةَ وَكَانَ لَا سَبِيلَ لَنَا فِي حَيَاتِنَا إِلَى الْوُقُوف عَلَيْهَا وُقُوفًا يُوجِبُ الائْتِلَافَ وَيَرْفَعُ عَنَّا الاخْتِلَافَ إِذْ كَانَ الاخْتِلَافُ مَرْكُوزًا فِي فِطَرِنَا وَكَانَ لَا يُمْكِنُ ارْتِفَاعُهُ وَزَوَالُهُ إِلَّا بِارْتِفَاعِ هَذِه الْجِبِلَّة وَنَقْلِهَا إِلَى صُورَةٍ غَيْرِهَا صَحَّ ضَرُورَةً أَنَّ لَنَا حَيَاةً أُخْرَى غَيْرَ هَذِه الْحَيَاة فِيهَا يَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْعِنَادُ وَهَذِه هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِالْمَصِيرِ إِلَيْهَا فَقَالَ: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} حِقْد فَقَدْ صَارَ الْخِلَافُ الْمَوْجُودُ كَمَا تَرَى أَوْضَحَ دَلِيلٍ عَلَى كَوْنِ الْبَعْثِ الَّذِي يُنْكِرُهُ الْمُنْكِرُونَ كَذَا قَرَّرَهُ ابْنُ السَّيِّدِ

ومن ذلك الاستدلال على أن (صانع العالم واحد)

بدلالة (التمانع) المشار إليها في قوله: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }

لأنه لو كان للعالم صانعان ؛

- لكان لا يجري تدبيرهما على نظام
- ولا يتسق على أحكام
- ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما

وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته

- فإما أن تنفذ إرادتهما ، فيتناقض :

  لاستحالة تجزّئ الفعل . إن فرض الاتفاق

  أو لامتناع اجتماع الضدين . إن فرض الاختلاف

- وإما ألا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما ، والإله لا يكون عاجزا.
- وإما لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه ، والإله لا يكون عاجزا.

فصل .. من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل

السبر والتقسيم	ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: {ثمانية أزواج من الضأن اثنين} الآيتين فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال: إن الخلق لله خلق من كل زوج مما ذكر ذكرا وأنثى فمم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما أو لا يدري له علة وهو التعبدي بأن أخذ ذلك عن الله تعالى والأخذ عن الله تعالى إما بوحي وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو معنى قوله: {أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا} فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها – والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما – والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراما – والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معا فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعَى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال
القول بالموجب	قال ابن أبي الإصبع وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه. وقال غيره هو قسمان: أحدهما: أن تقع صفة في كلام الغير كنايةً عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة} الآية فـ "الأعز" وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم و "الأذل" عن فريق المؤمنين وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة . فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون . وكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل لكن هم الأذل المخرج والله ورسوله الأعز المخرج والثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه نحو قوله تعالى { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ }

التسليم	وهو أن يفرض المحال ، إما منفيا أو مشروطا بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا } المعنى ليس مع الله من إله ، ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق وعلو بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم منه المحال
الإسجال	وهو الإتيان بألفاظ تُسَجِّلُ على المخاطب وقوع ما خوطب به نحو: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ} {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ} فإن في ذلك إسجالا بالإيتاء والإدخال حيث وصفا بالوعد من الله الذي لا يخلف وعده
الانتقال	هو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذا فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول . كما جاء في مناظرة إبراهيم ﷺ للنمرود لما قال له: {ربي الذي يحيي ويميت} فقال النمرود {قال أنا أحيي وأميت} ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه ، ومن لا يجب عليه القتل فقتله فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة ، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد الجبار له وجها يتخلص به منه فقال: {فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب} فانقطع الجبار وبهت ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بها من المشرق لأن من هو أسن منه يكذبه
المناقضة	وَهِيَ تَعْلِيقُ أَمْرٍ عَلَى مُسْتَحِيلٍ إِشَارَةً إِلَى اسْتِحَالَةِ وُقُوعِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}
مجارة الخصم	وَمِنْهَا مُجَارَاةُ: الْخَصْمِ لِيَعْثُرَ بِأَنْ يُسَلِّمَ بَعْضَ مُقَدِّمَاتِهِ حَيْثُ يُرَادُ تَبْكِيتُهُ وَإِلْزَامُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} الْآيَةَ فَقَوْلُهُمْ: {إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} الْآيَةَ فِيهِ اعْتِرَافُ الرُّسُلِ بِكَوْنِهِمْ مَقْصُورِينَ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فَكَأَنَّهُمْ سَلَّمُوا انْتِفَاءَ الرِّسَالَةِ عَنْهُمْ وَلَيْسَ مُرَادًا بَلْ هُوَ مِنْ مُجَارَاةِ الْخَصْمِ لِيَعْثُرَ فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا مَا ادَّعَيْتُمْ مِنْ كَوْنِنَا بَشَرًا حَقٌّ لَا نُنْكِرُهُ وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُنَافِي أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا بِالرِّسَالَةِ.

مُفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ

أخرج السلفي في المختار من الطيوريات عن الشعبي قال:

لقي عمر بن الخطاب ﷺ ركبا في سفر فيهم ابن مسعود ﷺ فأمر رجلا يناديهم:

من أين القوم ؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق نريد البيت العتيق

فقال عمر: إن فيهم لعالما وأمر رجلا أن يناديهم:

– أي القرآن أعظم ؟ فأجابه ابن مسعود {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}

– أي القرآن أحكم ؟ فقال: {إن الله يأمر بالعدل والأحسان وإيتاء ذي القربى}

– أي القرآن أجمع ؟ فقال: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}

– أي القرآن أحزن ؟ فقال: {من يعمل سوءا يجز به}

– أي القرآن أرجى ؟ فقال {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم}

الآية فقال: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: نعم

و عن ابن مسعود قال:

أعدل آية : {إن الله يأمر بالعدل والأحسان}

وأحكم آية : {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} إلى آخرها

و عنه قال: أجمع آية في القرآن للخير والشر {إن الله يأمر بالعدل والأحسان}

و عنه قال : أعظم آية فرجا {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم} الآية

أكثر أية تفويضا {ومن يتوكل على الله فهو حسبه } الآية

و عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن أعظم آية في القرآن: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}

وأعدل آية في القرآن: {إن الله يأمر بالعدل والأحسان} إلى آخرها

وأخوف آية في القرآن: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}

وأرجى آية في القرآن: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} الآية

وقد اختلف في أرجى آية في القرآن على بضعة عشر قولا

١	{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله}
٢	{أولم تؤمن قال بلى}
٣	{ولسوف يعطيك ربك فترضى}
٤	{إن الله لا يغفر أن يشرك به}
٥	{ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة} إلى قوله: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}
٦	{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا}
٧	{فهل يهلك إلا القوم الفاسقون}
٨	{وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}
٩	{يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة}
١٠	{قل كل يعمل على شاكلته}
١١	{وهل نجازي إلا الكفور}
١٢	{إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى}
١٣	{وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}
١٤	{قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}
١٥	آية الدين

١- آية الزمر

٢- {أولم تؤمن قال بلى} أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو عبيد عن صفوان بن سليم
قالا التقى ابن عباس وابن عمر فقال ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرجى
فقال عبد الله بن عمر: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم} الآية
فقال ابن عباس: لكن قول الله {وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} قال فرضى منه قوله: {بلى} قال: فهذا لما يعترض في الصدر مما يوسوس به الشيطان

٣- ما أخرجه أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
أنه قال: "إنكم يا معشر أهل العراق تقولون: أرجى آية في القرآن: {قل يا عبادي الذين أسرفوا} الآية
لكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله {ولسوف يعطيك ربك فترضى} وهي الشفاعة

٤- ما أخرجه الواحدي عن علي بن الحسين قال: "أشد آية على أهل النار: {فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا}
وأرجى آية في القرآن لأهل التوحيد {إن الله لا يغفر أن يشرك به} الآية
وأخرج الترمذي- وحسنه- عن علي قال: أحب آية إلي في القرآن {إن الله لا يغفر أن يشرك به} الآية

٥- ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن المبارك
أن أرجى آية في القرآن قوله تعالى: {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة} إلى قوله: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}

٦- ما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن أبي عثمان النهدي
قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا}

٧- ٨- قال أبو جعفر النحاس في قوله: {فهل يهلك إلا القوم الفاسقون} : إن هذه الآية عندي أرجى آية في القرآن ، إلا أن ابن عباس: قال أرجى آية في القرآن: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} وكذا حكاه عنه مكي ولم يقل: على "إحسانهم"

٩- روى الهروي في مناقب الشافعي عن ابن عبد الحكم قال: سألت الشافعي: أي آية أرجى
قال: قوله: {يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة}
قال: وسألته عن أرجى حديث للمؤمن ، قال: "إذا كان يوم القيامة يدفع إلى كل مسلم رجل من الكفار فداؤه"

١٠- {قل كل يعمل على شاكلته}
١١- {وهل نجازي إلا الكفور}
١٢- {إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى} حكاه الكرماني في العجائب
١٣- {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}
حكى هذه الأقوال الأربعة النووي في رءوس المسائل والأخير ثابت عن علي ففي مسند أحمد عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني العقوبة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه

١٤- {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} قال الشبلي: إذا كان الله أذن للكافر بدخول الباب إذا أتى بالتوحيد والشهادة أفتراه يخرج الداخل فيها والمقيم عليها؟!

١٥- آية الدين ووجهه أن الله أرشد عباده إلى مصالحهم الدنيوية حتى انتهت العناية بمصالحهم إلى أمرهم بكتابة الدين الكثير والحقير فمقتضى ذلك ترجى عفوه عنهم لظهور العناية العظيمة بهم

قلت: ويلحق بهذا :

• ما أخرجه ابن المنذر عن ابن مسعود أنه ذكر عنده بنو إسرائيل وما فضلهم الله به فقال كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح وقد كتبت كفارته على أسكفة بابه وجعلت كفارة ذنوبكم قولا تقولونه تستغفرون الله فيغفر لكم والذي نفسي بيده لقد أعطانا الله آية لهي أحب إلي من الدنيا وما فيها:

{ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله } الآية

• وما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن ابن عباس قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

١- {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم}
٢- {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات}
٣- {يريد الله أن يخفف عنكم}
٤- {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه}
٥- {إن الله لا يظلم مثقال ذرة}
٦- {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله}
٧- {إن الله لا يغفر أن يشرك به}
٨- {والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم}

• وما أخرجه ابن حاتم عن عكرمة قال سئل ابن عباس أي آية أرجى في كتاب الله؟

قال: قوله: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}

• ما أخرجه ابن راهويه في مسنده أنبأنا أبو عمرو العقدي أنبأنا عبد الجليل بن عطية عن محمد بن المنتشر قال: قال رجل لعمر بن الخطاب إني لأعرف أشد آية في كتاب الله تعالى فأهوى عمر فضربه بالدرة وقال: مالك نقبت عنها حتى علمتها ما هي؟

قال: {من يعمل سوءا يجز به} فما منا أحد يعمل سوءا إلا جزي به فقال عمر لبثنا حين نزلت ما ينفعنا طعام ولا شراب حتى أنزل الله بعد ذلك ورخص
{ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما}

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار فقال: {فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا}

وفي صحيح البخاري عن سفيان قال: ما في القرآن آية أشد علي من {لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والأنجيل وما أنزل إليكم من ربكم}

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية:
{لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت} الآية

وأخرج ابن المبارك في كتاب الزهد عن الضحاك بن مزاحم قرأ في قول الله {لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت}
قال: والله ما في القرآن آية أخوف عندي منها

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: ما أنزلت على النبي ﷺ آية كانت أشد عليه من قوله: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} الآية

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين: لم يكن شيء عندهم أخوف من هذه الآية
{ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}

وعن أبي حنيفة: أخوف آية في القرآن: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}
وقال غيره: {سنفرغ لكم أيها الثقلان} ولهذا قال بعضهم: لو سمعت هذه الكلمة من خفير الحارة لم أنم

وفي النوادر لأبي زيد قال مالك أشد آية على أهل الأهواء قوله:

{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} الآية فتأولها على أهل الأهواء انتهى

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: آيتان في كتاب الله ما أشدهما على من يجادل فيه {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد}

وقال السعيدي: سورة الحج من أعاجيب القرآن فيها :

(مكي ومدني وحضري وسفري وليلي ونهاري وحربي وسلمي وناسخ ومنسوخ)

١- فالمكي من رأس الثلاثين إلى آخرها
٢- والمدني من رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين
٣- والليلي خمس آيات من أولها
٤- والنهاري من رأس تسع آيات إلى رأس اثنتي عشرة
٥- والحضري إلى رأس العشرين
٦- والسفري أولها
٧- والناسخ {أذن للذين يقاتلون} الآية
٨- والمنسوخ {الله يحكم بينكم} الآية نسختها آية السيف

وقوله: {وما أرسلنا من قبلك} الآية نسختها {سنقرئك فلا تنسى}

وقال الكرماني: ذكر المفسرون أن قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم} الآية من أشكل آية في القرآن حكما ومعنى وإعرابا

وقال غيره: قوله تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم} الآية جمعت أصول أحكام الشريعة كلها: الأمر والنهي والإباحة والخبر

وقال الكرماني في العجائب في قوله تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص} قيل هو قصة يوسف وسماها "أحسن القصص" لاشتمالها على ذكر حاسد ومحسود ومالك ومملوك وشاهد ومشهود وعاشق ومعشوق وحبس وإطلاق وسجن وخلاص وخصب وجدب وغيرها مما يعجز عن بيانها طوق الخلق

وقال: ذكر أبو عبيدة عن رؤبة: ما في القرآن أعرب من قوله: {فاصدع بما تؤمر}

وقال ابن خالويه في كتاب ليس: ليس في كلام العرب لفظ جمع لغات (ما) النافية إلا حرف واحد في القرآن جمع اللغات الثلاث وهو قوله: {ما هن أمهاتهم}

١- قرأ الجمهور بالنصب
٢- وقرأ بعضهم بالرفع
٣- وقرأ ابن مسعود {ما هن بأمهاتهم} بالباء

قال وليس في القرآن لفظ على "افعوعل" إلا في قراءة ابن عباس {ألا إنهم يثنون صدورهم}

وقال بعضهم:

- أطول سورة في القرآن البقرة
- وأقصرها الكوثر
- وأطول آية فيه آية الدين
- وأقصر آية فيه {والضحى} {والفجر}
- وأطول كلمة فيه رسما {فأسقيناكموه}

وفي القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم:

١- { ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة } الآية
٢- { محمد رسول الله } الآية

وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين:

١- {عقدة النكاح حتى} ٢- {لا أبرح حتى}

ولا كافان كذلك إلا : ١- {مناسككم} ٢- {ما سلككم}

ولا غينان كذلك إلا : ١- {ومن يبتغ غير الأسلام}

ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافا إلا (آية الدين)

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفا إلا (آيتا المواريث)

ولا سورة ثلاث آيات ، فيها عشر واوات إلا (والعصر إلى آخرها)

ولا سورة إحدى وخمسون آية فيها (اثنان وخمسون وقفا)

إلا سورة الرحمن ذكر أكثر ذلك ابن خالويه

وقال أبو عبد الله الخبازي المقرئ: أول ما وردت على السلطان محمود بن ملكشاه سألني عن آية أولها غين فقلت ثلاثة:

١- {غافر الذنب} وآيتان بخلف

٢- {غلبت الروم}

٣- {غير المغضوب عليهم}

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر في القرآن أربع شدات متوالية في قوله:

{نسيا رب السماوات}

{في بحر لجي يغشاه موج}

{قولا من رب رحيم}

{ولقد زينا السماء.}

خواص القرآن

وغالب ما يذكر في ذلك كان مستنده تجارب الصالحين وها أنا أبدأ بما ورد من ذلك في الحديث ثم ألتقط عيونا مما ذكره السلف والصالحون:

عن ابن مسعود: "عليكم بالشفائين العسل والقرآن"

وعن علي: "خير الدواء القرآن"

وعن عن طلحة بن مصرف قال: "كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة"

و عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال: "عليك بقراءة القرآن"

وعن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "إني أشتكي صدري"

قال: "اقرأ القرآن" لقول الله تعالى: {وشفاء لما في الصدور}

وعن عبد الله بن جابر: "في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء"

وعن جابر بن عبد الله: {فاتحة الكتاب شفاء من كل شيء إلا السام" والسام الموت.

وعن أبي سعيد الخدري: "فاتحة الكتاب شفاء من السم".

وعن أبي سعيد الخدري أيضا قال: "كنا في مسير لنا فترلنا فجاءت جارية فقالت إن سيد الحي سليم فهل معكم راق؟ فقام معها رجل فرقاه بأم القرآن فبرئ

فذكر للنبي ﷺ فقال: "وما كان يدريه أنها رقية"

و عن السائب بن يزيد قال عوذني رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب تفلا

وعن أنس إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت"

وعن أبي هريرة: "إن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان"

و عن أبي بن كعب قال كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إن لي أخا وبه وجع قال: وما وجعه؟ قال: به لمم قال فأتني به فوضعه بين يديه فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين وإلهكم إله واحد وآية الكرسي وثلاث

آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران {شهد الله أنه لا إله إلا هو} وآية من الأعراف {إن ربكم الله} وآخر سورة المؤمنين"
{فتعالى الله الملك الحق} وآية من سورة الجن {وأنه تعالى جد ربنا} وعشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك قط .

و عن ابن مسعود موقوفا: "من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة وآية الكرسي وآيتين بعد آية الكرسي وثلاثا من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق"

وعن أبي هريرة في قصة الصدقة: "أن الجني قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم" "أما إنه صدقك وهو كذوب".

وعن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله علمني شيئا ينفعني الله به قال: "اقرأ آية الكرسي فإنه يحفظك وذريتك وحفظ دارك حتى الدويرات حول دارك"

وعن الحسن أن النبي ﷺ قال:
"إن جبريل أتاني فقال: إن عفريتا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي"

وعن أبي قتادة: "من قرأ آية الكرسي عند الكرب أغاثه الله"

وعن المغيرة بن سبيع- وكان من أصحاب عبد الله- قال: "من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه لم ينس القرآن: أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث من آخرها"
وأخرج الديلمي من حديث أبي هريرة مرفوعا: "آيتان هما قرآن وهما يشفيان وهما مما يحبهما الله الآيتان من آخر سورة البقرة"

و عن معاذ أن النبي ﷺ قال له: "ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك من الدين مثل صبر أداه الله عنك: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء} إلى قوله: {بغير حساب} رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي من تشاء منهما وتمنع من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

وعن ابن عباس: "إذ استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموسا فليقرأ هذه الآية في أذنيها:
{أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون}

وعن علي موقوفا: "سورة الأنعام ما قرئت على عليل إلا شفاه الله".

و عن فاطمة أن رسول الله ﷺ لما دنا ولادها أمر أم سلمة وزينب بنت جحش أن يأتيا فيقرأ عندها آية الكرسي و {إن ربكم الله} الآية ويعوذاها بالمعوذتين.

وعن الحسين بن علي "أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا:
{بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم} {وما قدروا الله حق قدره} الآية.

وعن ليث قال: "بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر يقرأن في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور:
الآية التي في سورة يونس: {فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر} إلى قوله:
{المجرمون} وقوله: {فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون} إلى آخر أربع آيات
وقوله: {إنما صنعوا كيد ساحر} الآية.

وعن أبي هريرة: "ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال:
يا محمد قل "توكلت على الحي الذي لا يموت"؛
{وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا}

وعن ابن عباس مرفوعا: "هذه الآية أمان من السرق: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} إلى آخر السورة

وعن أنس: "ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال ولا ولد فيقول:
ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت"

وعن عبدة بن أبي لبابة عن زر بن حبيش قال: "من قرأ آخر سورة
الكهف لساعة يريد أن يقومها من الليل قامها" قال عبدة: فجربناه فوجدناه كذلك.

وعن سعد بن أبي وقاص: "دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له"

وعن ابن السني: "إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج عنه كلمة أخي يونس {فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} .

وعن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق فقال رسول الله ﷺ ما قرأت في أذنه؟ قال: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا} إلى آخر السورة

فقال: لو أن رجلا مؤمنا قرأ بها على جبل لزال".

وعن أبي ذر: "ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه".

وعن عبد الله بن الزبير: "من جعل يس أمام حاجة قضيت له" وله شاهد مرسل عن الدارمي

وعن أبي جعفر محمد بن علي قال: "من وجد في قلبه قسوة فليكتب يس في جام بماء ورد وزعفران ثم يشربه".

وعن عن أبي سعيد بن جبير أنه قرأ على رجل مجنون سورة يس فبرئ.

وعن يحيى بن أبي كثير قال من قرأ يس إذا أصبح لم يزل في فرح حتى يمسي ومن قرأها إذا أمسى لم يزل في فرح حتى يصبح أخبرنا من جرب ذلك.

وعن أبي هريرة: "من قرأ الدخان كلها وأول غافر إلى {إليه المصير} وآية الكرسي حين يمسي حفظ بها حتى يصبح ومن قرأها حين يصبح حفظ بها حتى يمسي

وعن عن ابن مسعود مرفوعا: "من قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدا"

وعن ابن عباس موقوفا في المرأة يعسر عليها ولادها قال: يكتب في قرطاس ثم تسقى: "باسم الله الذي لا إله إلا هو الحليم الكريم سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم؛ الحمد لله رب العالمين"، {كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ، {كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون} .

وعن عن ابن عباس قال: إذا وجدت في نفسك شيئا– يعني الوسوسة،

فقل: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}

وعن علي قال لدغت: النبي ﷺ عقرب، فدعا بماء وملح وجعل يمسح عليها، ويقرأ:

{قل يا أيها الكافرون} و {قل أعوذ برب الفلق} و {قل أعوذ برب الناس}

وعن ابن مسعود، أن النبي ﷺ كان يكره الرقى إلا بالمعوذات.

وعن أبي سعيد: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان؛

حتى نزلت المعوذتان، فأخذها وترك ما سواها

فهذا ما وقفت عليه في الخواص من الأحاديث التي لم تصل إلى حد الوضع ومن الموقوفات عن الصحابة والتابعين:

وأما مالم يرد به أثر فقد ذكر الناس من ذلك كثيرا جدا الله أعلم بصحته

ومن لطيف ما حكاه ابن الجوزي عن ابن ناصر عن شيوخه، عن ميمونة بنت شاقول البغدادية قالت: آذانا جار، لنا فصليت ركعتين، وقرأت من فاتحة كل سورة آية حتى ختمت القرآن، وقلت: اللهم اكفنا أمره ثم نمت وفتحت عيني وإذا به قد نزل وقت السحر فزلت قدمه فسقط ومات.

تنبيه:

قال ابن التين:

الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الروحاني إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله ، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجثماني

قلت: ويشير إلى هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "لو أن رجلا موقنا قرأ بها على جبل لزال".

وقال القرطبي: تجوز الرقية بكلام الله وأسمائه فإن كان مأثورا استحب

وقال الربيع : سألت الشافعي عن الرقية فقال:

لا بأس أن يرقى بكتاب الله وما يعرف من ذكر الله

وقال ابن بطال: في المعوذات سر ليس في غيرها من القرآن لما اشتملت عليه من جوامع الدعاء التي تعم أكثر المكروهات؛ من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك فلهذا كان صلى الله عليه وسلم يكتفي بها.

وقال ابن القيم – رحمه الله – في حديث الرقية بالفاتحة:
إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع، فما الظن بكلام رب العالمين، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا غيره من الكتب مثلها لتضمنها جميع ما في الكتاب فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها وإثبات المعاد وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب في طلب الإعانة به والهداية منه وذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه والاستقامة عليه ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته وضال لعدم معرفته له مع ما تضمنته من إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب والرد على جميع أهل البدع وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من كل داء! انتهى.

مسألة

قال النووي في شرح المهذب لو كتب القرآن في إناء ثم غسله وسقاه المريض فقال الحسن البصري ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي: لا بأس به وكرهه النخعي قال ومقتضى مذهبنا أنه لا بأس به فقد قال القاضي حسين والبغوي وغيرهما: لو كتب على حلوى وطعام فلا بأس بأكله انتهى.

قال الزركشي: ممن صرح بالجواز في مسألة الإناء العماد النيهي مع تصريحه بأنه لا يجوز ابتلاع ورقة فيها آية، لكن أفتى ابن عبد السلام بالمنع من الشرب أيضا، لأنه تلاقيه نجاسة الباطن وفيه نظر.

معرفة شروط المفسر وآدابه

قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز

- طلبه أولا من القرآن فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه
- فإن أعياه ذلك طلبه من السنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له .

وقد قال الشافعي – رحمه الله – كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن
قال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}
وقال ﷺ : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"، يعني السنة .

- فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح وقد قال الحاكم في المستدرك: إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتتريل له حكم المرفوع .

وقال الإمام أبو طالب الطبري : القول في أدوات المفسر:
اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولا ولزوم سنة الدين فإن من كان مغموصا عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة ويغر الناس بليه وخداعه كدأب الباطنية وغلاة الرافضة وإن كان متهما بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته كدأب القدرية فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاح الساكن ليصدهم عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى ويجب أن يكون اعتماده على النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ومن عاصرهم ويتجنب المحدثات .

وإذا تعارضت أقوالهم وأمكن الجمع بينهما فعل نحو أن يتكلم على الصراط المستقيم وأقوالهم فيه ترجع إلى شيء واحد فيأخذ منها ما يدخل فيه الجميع فلا تنافي بين القرآن

وطريق الأنبياء فطريق السنة وطريق النبي ﷺ وطريق أبي بكر وعمر ﭫ فأي هذه الأقوال أفرده كان محسنا .

وإن تعارضت رد الأمر إلى ما ثبت فيه السمع ، وإن لم يجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدها رجح ما قوي الاستدلال فيه كاختلافهم في معنى حروف الهجاء يرجح قول من قال إنها قسم .

وإن تعارضت الأدلة في المراد علم أنه قد اشتبه عليه فيؤمن بمراد الله منها ولا يتهجم على تعيينه وينزله منزلة المجمل قبل تفصيله والمتشابه قبل تبيينه .

ومن شرطه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد فقد قال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} وإنما يخلص له القصد إذا زهد في الدنيا لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل به إلى عرض يصده عن صواب قصده ويفسد عليه صحة عمله .

وتمام هذه الشرائط أن يكون ممتلئا من عدة الإعراب لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام فإنه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان إما حقيقة أو مجازا فتأويله تعطيله وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى: {قل الله ثم ذرهم} ، إنه ملازمة قول الله ولم يدر الغبي أن هذه جملة حذف منها الخبر والتقدير: الله أنزله انتهى.

وقال ابن تيمية : في كتاب ألفه في هذا النوع: يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه فقوله تعالى: {لتبين للناس ما نزل إليهم} يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيننا رواه أحمد في مسنده

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين أخرجه في الموطأ وذلك أن الله قال: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته} وقال: {أفلا يتدبرون القرآن} وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن

وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليل جدا وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال والخلاف بين السلف في التفسير قليل وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد

وذلك صنفان :

أحدهما : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم (الصراط المستقيم)

بعضٌ بالقرآن أي اتباعه ، وبعضٌ بالإسلام . فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر كما أن لفظ "صراط" يشعر بوصف ثالث

وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة ، وقول من قال: هو طريق العبودية ، وقول من قال هو طاعة الله ورسوله وأمثال ذلك فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه .

مثاله ما نقل في قوله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا} الآية .

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات

والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات

والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات

فالمقتصدون أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون

ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول القائل:

السابق الذي يصلي أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار .

أو يقول السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة

قال: وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير

تارة لتنوع الأسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى

هو الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف

ومن التنازع الموجود عنهم :

ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين إما لكونه مشتركا في اللغة كلفظ "قسورة" الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد ولفظ "عسعس" الذي يراد به إقبال الليل وإدباره وإما لكونه متواطئا في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضمائر في قوله: {ثم دنا فتدلى} الآية وكلفظ الفجر والشفع والوتر وليال عشر وأشباه ذلك

فمثل هذا قد يجوز أن يراد كل المعاني التي قالها السلف وقد لا يجوز ذلك

فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه وإما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما إذا لم يكن لمخصصه موجب فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني

ومن الأقوال الموجودة عنهم- ويجعلها بعض الناس اختلافا-
أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة كما إذا فسر بعضهم
"تبسل" ب "تحبس"، وبعضهم ب "ترهن" . لأن كلا منهما قريب من الآخر

ثم قال: **فصل ، والاختلاف في التفسير على نوعين:**

منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك (كالاستدلال) .

والمنقول إما عن المعصوم ، أو غيره

ومنه – أي عن غير المعصوم – **ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه مالا يمكن ذلك**

- **وهذا القسم الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه**

عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته .

وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وفي قدر سفينة نوح وخشبها وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك .

فهذه الأمور طريق العلم بها النقل فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي ﷺ قُبِل ، وما لا – بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب- وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله ﷺ :

"إذ حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"

وكذا ما نُقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب

فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض .

وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعي ، ومع جزم الصحابي بما يقوله

كيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم!

- وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثيرا ولله الحمد
وإن قال الإمام أحمد: " ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي "
وذلك لأن الغالب عليها المراسيل

وأما ما يعلم بـــ (الاستدلال) لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حَدَثَتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان
فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين مثل تفسير عبد الرازق والفريابي ووكيع وعبد وإسحاق وأمثالهم

أحدهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.
والثاني : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده مَنْ كان مِنْ الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمترل عليه والمخاطب به
فالأولون : راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان
والآخرون : راعوا مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام .
ثم هؤلاء كثيرا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم كما أن الأولين كثيرا ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط في ذلك الآخرون وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق

والأولون صنفان :
تارة : يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به
وتارة : يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به .
وفي كلا الأمرين :
قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلا فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول
وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول

فالذين أخطئوا فيهما :

مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم والجبائي وعبد الجبار والرماني والزمخشري وأمثالهم

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه ؛ حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة

وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة، وأسلم من البدعة ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبري وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا ثم إنه يدع ما ينقله عن السلف ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في الآية تفسير وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ .

وأما الذين أخطئوا في الدليل لا المدلول :

فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها لكن القرآن لا يدل عليها مثل كثير مما ذكره السلمي في الحقائق فإن كان فيما ذكروه معان باطلة دخل في القسم الأول . انتهى كلام ابن تيمية ملخصا ، وهو نفيس جدا.

فصل في أمهات مآخذ التفسير

قال الزركشي في البرهان للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي ﷺ .

وهذا هو الطراز المعلَم لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع فإنه كثير

ولهذا قال أحمد: ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير .

وقال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة وإلا فقد صح من ذلك كثير كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام والحساب اليسير بالعرض والقوة بالرمي في قوله: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}

قلت: الذي صح من ذلك قليل جدا بل أصل المرفوع منه في غاية القلة .

وسأسردها كلها آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي رضي الله عنه

فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ كما قاله الحاكم في مستدركه

وقال أبو الخطاب من الحنابلة يحتمل ألا يرجع إليه إذا قلنا إن قوله ليس بحجة والصواب الأول لأنه من باب الرواية لا الرأي

قلت: ما قاله الحاكم نازعه فيه ابن الصلاح وغيره من المتأخرين بأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه مما لا مدخل للرأي فيه ثم رأيت الحاكم نفسه صرح به في علوم الحديث

فقال: ومن الموقوفات تفسير الصحابة وأما من يقول إن تفسير الصحابة مسند فإنما يقول فيما فيه سبب النزول فقد خصص هنا وعمم في المستدرك فاعتمد الأول والله أعلم.

ثم قال الزركشي : وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد

واختار ابن عقيل المنع وحكوه عن شعبة.

لكن عمل المفسرين على خلافه فقد حكوا في كتبهم أقوالهم لأن غالبها تلقوها من الصحابة وربما يحكى عنهم عبارات مختلفة الألفاظ فيظن من لا فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق فيحكيه أقوالا وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من الآية لكونه أظهر عنده أو أليق بحال السائل وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره والآخر بمقصوده وثمرته والكل يؤول إلى معنى واحد غالبا .

فإن لم يمكن الجمع ، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا في الصحة عنه وإلا فالصحيح المقدم.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة .

فإن القرآن نزل بلسان عربي وهذا قد ذكره جماعة ونص عليه أحمد في مواضع .

لكن نقل الفضل بن زياد عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر فقال: ظاهره المنع ولهذا قال: بعضهم في جواز تفسيره القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد.

وقيل: الكراهة تحمل على صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب ولا يوجد غالبا إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها.

وروى البيهقي في الشعب عن مالك قال:

" لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا "

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه حيث قال: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"

والذي عناه عليٌّ رضي الله عنه بقوله: "إلا فهما يؤتاه الرجل في القرآن"

ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية ، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره

ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل

قال تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} ، وقال: {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}

وقال: {لتبين للناس ما نزل إليهم}

فأضاف البيان إليه وقال ﷺ : "من تكلم في القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطأ"

وقال ﷺ : "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"

قال البيهقي في الحديث الأول: هذا إن صح، فإن ما أراد – والله أعلم – الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يسنده برهان، فالقول به جائز.

وقال في المدخل: في هذا الحديث نظر، وإن صح فإنما أراد به –والله أعلم: فقد أخطأ الطريق فسبيله أن يرجع في تفسيره ألفاظه إلى أهل اللغة وفي معرفة ناسخه ومنسوخه وسبب نزوله وما يحتاج فيه إلى بيانه إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تتريله وأدوا إلينا من السنن ما يكون بيانا لكتاب الله تعالى

قال تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}

فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة من بعده ، وما لم يرد عنه بيانه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد

قال: وقد يكون المراد به: من قال فيه برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه فيكون موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة

وقال الماوردي: قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام كما قال تعالى: {لعلمه الذين يستنبطونه منهم} ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء إلا بالاستنباط ولما فهم الأكثرون من

كتاب الله شيئا وإن صح الحديث ، فتأويله أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه ولم يعرج على سوى لفظه وأصاب الحق فقد أخطأ الطريق ، وإصابته اتفاق ؛ إذا الغرض أنه مجرد رأي لا شاهد له

وفي الحديث "القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه "

فقوله: " ذلول " يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم

والثاني : أنه موضح لمعانيه حتى لا تقصر عنه أفهام المجتهدين

وقوله: "ذو وجوه" يحتمل معنيين:

أحدهما : أن من ألفاظه ما يحتمل وجوها من التأويل

والثاني : أنه قد جمع وجوها من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والتحليل والتحريم

وقوله: "فاحملوه على أحسن وجوهه" يحتمل معنيين:

أحدهما : الحمل على أحسن معانيه

والثاني : أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص ، والعفو دون الانتقام .

وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى

وقال أبو الليث: النهي إنما انصرف إلى المتشابه منه لا إلى جميعه .

كما قال تعالى: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه} لأن القرآن إنما نزل حجة على الخلق فلو لم يجز التفسير لم تكن الحجة بالغة

فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وأسباب الترول أن يفسره ، وأما من لم يعرف وجوه اللغة فلا يجوز أن يفسره إلا بمقدار ما سمع فيكون ذلك على وجه الحكاية لا على وجه التفسير ولو أنه يعلم التفسير وأراد أن يستخرج من الآية حكما أو دليل الحكم فلا بأس به .

ولو قال: المراد من الآية كذا من غير أن يسمع فيه شيئا فلا يحل ، وهو الذي نهي عنه

وقال ابن الأنباري : في الحديث الأول:

حمله بعض أهل العلم على أن الرأي معني به الهوى

فمن قال في القرآن قولا يوافق هواه فلم يأخذه عن أئمة السلف وأصاب فقد أخطأ

لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه

وقال : في الحديث الثاني: له معنيان:

أحدهما : من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله تعالى

والآخر : - وهو الأصح- من قال في القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار

وقال البغوي والكواشي وغيرهما:

التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط غير محظور على العلماء بالتفسير كقوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا}

قيل: شبابا وشيوخا ، وقيل: أغنياء وفقراء ، وقيل: عزابا ومتأهلين

وقيل: نشاطا وغير نشاط ، وقيل: أصحاء ومرضى .

وكل ذلك سائغ والآية تحتمله

وأما التأويل المخالف للآية والشرع فمحظور لأنه تأويل الجاهلين.

مثل تأويل الروافض قوله تعالى:

{مرج البحرين يلتقيان} أنهما علي وفاطمة

{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} يعني الحسن والحسين

وقال بعضهم: اختلف الناس في تفسير القرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟

- فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالما أديبا متسما في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار

وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ في ذلك

- وقال قوم : يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها

وهي خمسة عشر علما:

١- اللغة
٢- النحو
٣- الصرف
٤- الاشتقاق
٥- البلاغة (المعاني والبيان والبديع) [دمجت الثلاثة في واحد]
٦- علم القراءات
٧- أصول الدين
٨- أصول الفقه
٩- أسباب النزول والقصص
١٠- الناسخ والمنسوخ
١١- الفقه
١٢- الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم
١٣- علم الموهبة

أحدها: اللغة لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع قال: مجاهد لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب، وتقدم قول الإمام مالك في ذلك ولا يكفي في حقه معرفة اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر

الثاني: النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها

الثالث: التصريف لأن به تعرف الأبنية والصيغ قال ابن فارس ومن فاته علمه فاته المعظم لأن "وجد" مثلا كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها
وقال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالى: {يوم ندعو كل أناس بإمامهم} ، جمع "أم"، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهل بالتصريف فإن "أما" لا تجمع على "إمام"

الرابع: الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح!

الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع، لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة وهي من أعظم أركان المفسر لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم
قال السكاكي: اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا التمرن على علمي المعاني والبيان
وقال ابن أبي الحديد: اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ولا يمكن إقامة الدلالة عليه وهو بمنزلة جاريتين إحداهما بيضاء مشربة بحمرة دقيقة الشفتين نقية

الثغر كحلاء العينين أسيلة الخد دقيقة الأنف معتدلة القامة والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن لكنها أحلى في العيون والقلوب منها ولا يدرى سبب ذلك ولكنه يعرف بالذوق والمشاهدة ولا يمكن تعليله وهكذا الكلام نعم يبقى الفرق بين الوصفين أن حسن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة وأما الكلام فلا يدرك إلا بالذوق وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض

وقال الزمخشري: من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليما من القادح

وقال غيره: معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله تعالى وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة

الثامن: علم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: أصول الدين بما في القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى فالأصولي يؤول ذلك ويستدل على ما يستحيل وما يجب وما يجوز

العاشر: أصول الفقه إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره

الثالث عشر: الفقه

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم

الخامس عشر: علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بحديث: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم"

قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له .
قال: فهذه العلوم – التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأي المنهي عنه

قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي ﷺ

قلت: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول هذا شيء ليس في قدرة الإنسان !
وليس كما ظننت من الإشكال والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد
قال في البرهان : اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو وهو مصر على ذنب أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض

قلت: وفي هذا المعنى قوله تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}
قال سفيان بن عيينة: يقول أنزع عنهم فهم القرآن. أخرجه ابن أبي حاتم
وقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس رضي الله عنه قال التفسير: أربعة أوجه :
١– وجه تعرفه العرب من كلامها
٢– وتفسير لا يعذر أحد بجهالته
٣– وتفسير تعلمه العلماء
٤– وتفسير لا يعلمه إلا الله
ثم رواه مرفوعا بسند ضعيف بلفظ: "أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى ومن ادعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب

قال الزركشي في البرهان: في قول ابن عباس هذا تقسيم صحيح

• فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك اللغة والإعراب فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ولا يلزم ذلك القارئ ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفى فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين وإن كان يوجب العلم لم يكف ذلك بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر

وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم ويسلم القارئ من اللحن وإن لم يكن محيلا للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه

• وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد وكل لفظ أفاد معنى واحدا جليا يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} وأنه لا شريك له في الإلهية، وإن لم يعلم أن "لا" موضوعة في اللغة للنفي "وإلا" للإثبات وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} ونحوها من "الأوامر" طلب إيجاب المأمور به في الوجود وإن لم يعلم أن صيغة "افعل" للوجوب فما كان من هذا القسم لا يعذر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة

• وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة قيام الساعة وتفسير الروح والحروف المقطعة وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله

• وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم

وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي .

وإن استويا– والاستعمال فيهما حقيقة لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية وفي الآخر شرعية– فالحمل على الشرعية أولى إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية كما في قوله {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم }

ولو كان في أحدهما عرفية والآخر لغوية فالحمل على العرفية أولى لأن الشرع ألزم .

فإن تنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادهما باللفظ الواحد، كـ (القُرْء) للحيض والطهر.

اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه

وإن لم يظهر له شيء :

فهل يتخير في الحمل على أيهما شاء ؟ أو يأخذ بالأغلظ حكما ؟ أو بالأخف؟ .. أقوال

وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما .

قال :

إذا عرف ذلك فيترل حديث "من تكلم في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار" على قسمين من هذه الأربعة :

أحدها: تفسير اللفظ لاحتياج المفسر له إلى التبحر في معرفة لسان العرب

والثاني: حمل اللفظ المحتمل على أحد معنييه

لاحتياج ذلك إلى معرفة أنواع من العلوم والتبحر في العربية واللغة ومن علم الأصول ما يدرك به حدود الأشياء وصيغ الأمر والنهي والخبر والمجمل والمبين والعموم والخصوص والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والظاهر والمؤول والحقيقة والمجاز والصريح والكناية ومن الفروع ما يدرك به الاستنباط، والاستدلال على هذا أقل ما يحتاج إليه ومع ذلك فهو على خطر فعليه أن يقول يحتمل كذا ولا يجزم إلا في حكم اضطر إلى الفتوى به فأدى "اجتهاده إليه" فيجزم مع تجويز خلافه عند الله . انتهى.

وقال ابن النقيب : جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

١- التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير
٢- تفسير المتشابه لا يعلمه إلا الله.
٣- التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا، فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفا.
٤- التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل
٥- التفسير بالاستحسان والهوى

ثم قال : واعلم أن علوم القرآن ثلاثة أقسام:

١- علم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته وغيوبه التي لا يعلمها إلا هو وهذا لا يجوز لأحد الكلام فيه بوجه من الوجوه إجماعا.
٢- ما أطلع الله عليه نبيه من أسرار الكتاب واختصه به وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له صلى الله عليه وسلم أو لمن أذن له، قال: وأوائل السور من هذا القسم وقيل من القسم الأول.
٣- علوم علمها الله نبيه مما أودع كتابه من المعاني الجلية والخفية وأمره بتعليمها

وهذا ينقسم إلى قسمين :

١- منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع وهو أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات واللغات وقصص الأمم الماضية وأخبار ما هو كائن من الحوادث وأمور الحشر والمعاد

٢- ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من الألفاظ وهو قسمان:

قسم : اختلفوا في جوازه وهو تأويل الآيات المتشابهات في الصفات

وقسم : اتفقوا عليه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والإعرابية لأن مبناها على الأقيسة وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والإشارات لا يمتنع استنباطها منه واستخراجها لمن له أهلية انتهى ملخصا.

وقال أبو حيان: ذهب بعض من عاصرناه إلى أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تركيبه بالإسناد إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرابهم وأن فهم الآيات يتوقف على ذلك . قال وليس كذلك

وقال الزركشي : بعد حكاية ذلك: الحق أن علم التفسير

- منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل
- ومنه مالا يتوقف ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعتبر

قال : وكأن السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل والتمييز بين المنقول والمستنبط ليحمل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط

قال: واعلم أن القرآن قسمان : (قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد)

فأما ما ورد بالنقل (فإما أن يرد عن النبي ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين)

فالأول : يبحث فيه عن صحة السند

والثاني : ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان- فلا شك في اعتمادهم- أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه . وحينئذ

إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة

فإن أمكن الجمع فذاك ، وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبي ﷺ بشره بذلك

حيث قال: "اللهم علمه التأويل"

وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لحديث "أفرضكم زيد"

والثالث : أما ما ورد عن التابعين فحيث جاز الاعتماد فيما سبق فكذلك هنا

وإلا وجب الاجتهاد

وأما ما لم يرد فيه نقل : (فهو قليل)

وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب "المفردات" فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتضاه السياق . انتهى.

قلت: وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبي ﷺ والصحابة فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف وقد تم ولله الحمد في أربع مجلدات وسميته: "ترجمان القرآن" ورأيت وأنا في أثناء تصنيفه النبي ﷺ في المنام في قصة طويلة تحتوي على بشارة حسنة.

تنبيه

من المهم معرفة التفاسير الواردة عن الصحابة بحسب قراءة مخصوصة وذلك أنه قد يرد عنهم تفسيران في الآية الواحدة مختلفان فيظن اختلافا وليس باختلاف وإنما كل تفسير على قراءة وقد تعرض السلف لذلك فأخرج ابن جرير في قوله تعالى: {لقالوا إنما سكرت أبصارنا} من طريق عن ابن عباس وغيره أن "سكرت" بمعنى "سدت" ومن طرق أنها بمعنى "أخذت"

ثم أخرج عن قتادة قال: من قرأ "سكرت" مشددة فإنما يعني "سدت" ومن قرأ "سكرت" مخففة فإنه يعني "سحرت"

وهذا الجمع من قتادة نفيس بديع ومثله قوله تعالى: {سرابيلهم من قطران} أخرج ابن جرير عن الحسن أنه الذي تهنأ به الإبل

وأخرج من طرق عنه وعن غيره أنه النحاس المذاب، وليسا بقولين، وإنما الثاني تفسير لقراءة من "قطرآن"، بتنوين قطر وهو النحاس و "آن" شديد الحر كما أخرجه ابن أبي حاتم هكذا عن سعيد بن جبير

وأمثلة هذا النوع كثيرة والكافل ببيانها كتابنا "أسرار التنزيل" وقد خرجت على هذا قديما الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره في تفسير آية: {أو لامستم} هل هو الجماع أو الجس باليد فالأول تفسير لقراءة لامستم والثاني لقراءة {لمستم} ولا اختلاف.

فائدة

قال الشافعي – رحمه الله – في مختصر البويطي " لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن رسول الله ﷺ أو خبر عن أحد من أصحابه أو إجماع العلماء " . هذا نصه

فصل في تفسير الصوفية

وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير

قال ابن الصلاح : في فتاويه وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي "حقائق التفسير" فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسيرا فقد كفر

قال ابن الصلاح: وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس!

وقال النسفي : في عقائده:

" النصوص على ظاهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد "

وقال التفتازاني : في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية

قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان

وسئل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني

عن رجل قال في قوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} : إن معناه: من ذل: أي من الذل ذي: إشارة إلى النفس يشف: من الشفا جواب "من" ع: أمر من الوعي

فأفتى بأنه ملحد

وقد قال تعالى: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا}

قال ابن عباس: هو أن يوضع الكلام على غير موضعه، أخرجه ابن أبي حاتم

فإن قلتَ: فقد قال الفريابي حدثنا سفيان، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : "لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع"

وأخرج الديلمي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعا:

"القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد"

وأخرج الطبراني وأبو يعلى والبزار وغيرهم، عن ابن مسعود موقوفا:

"إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد ولكل حد مطلع"

قلتُ: أما (الظهر والبطن) ففي معناه أوجه:

أحدها: أنك إذا بحثت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها

والثاني: أن ما من آية إلا عمل بها قوم ولها قوم سيعملون بها

كما قال ابن مسعود فيما أخرجه ابن أبي حاتم

الثالث: أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها

الرابع: قال أبو عبيد - وهو أشبهها بالصواب - :

إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين إنما هو حديث حدث به، عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم

وحكى ابن النقيب قولا خامسا:

أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر

وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق .

ومعنى قوله: " ولكل حرف حد " أي منتهى ، فيما أراد الله من معناه

وقيل: لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب

ومعنى قوله: " ولكل حد مطلع " لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته، ويوقف على المراد به

وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة

وقال بعضهم.. الظاهر : التلاوة ، والباطن : الفهم

والحد : أحكام الحلال والحرام ، والمطلع : الإشراف على الوعد والوعيد

قلت: يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن

أوغل فيه بعنف هوى أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء

وقال ابن سبع : في شفاء الصدور:
ورد عن أبي الدرداء أنه قال: " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها "
وقال ابن مسعود: " من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن "
قال: وهذا الذي قالاه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر

وقال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ، فهذا يدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير وليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ولا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر بل لا بد منه أولا إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب انتهى.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه لطائف المنن:
اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان
وثَمّ أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه وقد جاء في الحديث لكل آية ظهر وبطن فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقرؤون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.

فصل: فيما يجب على المفسِّر

قال العلماء: يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسَّر ، وأن يتحرز في ذلك من نقص عما يحتاج إليه في إيضاح المعنى أو زيادة لا تليق بالغرض ، ومن كون المفسِّر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه

وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام وأن يؤاخي بين المفردات ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فيتكلم عليها من جهة اللغة ثم التصريف ثم الاشتقاق ثم يتكلم عليها بحسب التركيب

فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين المعنى المراد ، ثم الاستنباط ، ثم الإشارات

وقال الزركشي : في أوائل البرهان: قد جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ، ووقع البحث في أنه : أيما أولى البداءة به ؟ بتقدم السبب على المسبب أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام وهي سابقة على النزول

قال: والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول كآية: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة.

وقال في موضع آخر جرت عادة المفسرين ممن ذكر فضائل القرآن أن يذكرها في أول كل سورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها ، إلا الزمخشري فإنه يذكرها في أواخرها

قال مجد الأئمة عبد الرحيم بن عمر الكرماني: سألت الزمخشري عن العلة في ذلك فقال لأنها صفات لها والصفة تستدعي تقديم الموصوف

وكثيرا ما يقع في كتب التفسير "حكى الله" كذا فينبغي تجنبه

قال الإمام أبو نصر القشيري في المرشد: قال معظم أئمتنا: لا يقال: "كلام الله محكي" ولا يقال: "حكى الله" لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء وليس لكلامه مثل

وتساهل قوم فأطلقوا لفظ الحكاية بمعنى الإخبار وكثيرا ما يقع في كلامهم إطلاق الزائد على بعض الحروف وقد مر في نوع الإعراب .

وعلى المفسِّر أن يتجنب ادعاء التكرار ما أمكنه

قال بعضهم مما يدفع توهم التكرار في عطف المترادفين نحو:

{لا تبقي ولا تذر} {صلوات من ربهم ورحمة} وأشباه ذلك

أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما فإن التركيب يحدث معنى زائدا وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ انتهى.

وقال الزركشي في البرهان: ليكن محط نظر المفسِّر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز

وقال في موضع آخر: على المفسِّر مراعاة مجازي الاستعمالات في الألفاظ التي يظن بها الترادف والقطع بعدم الترادف ما أمكن فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد انتهى.

وقال أبو حيان : كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الإعراب بعلل النحو ودلائل مسائل أصول الفقه ودلائل مسائل الفقه ودلائل أصول الدين وكل ذلك مقرر في تآليف هذه العلوم وإنما يؤخذ ذلك مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه، وكذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول وأحاديث في الفضائل وحكايات لا تناسب وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير.

فائدة

قال ابن أبي جمرة: عن علي ﷺ أنه قال:

" لو شئت أوقِرَ سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت "

وبيان ذلك أنه إذا قال: {الحمد لله رب العالمين} يحتاج تبيين معنى الحمد وما يتعلق به الاسم الجليل الذي هو الله وما يليق به من التتريه

ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده وهي ألف عالم أربعمائة في البر وستمائة في البحر فيحتاج إلى بيان ذلك كله

فإذا قال: {الرحمن الرحيم} يحتاج إلى بيان الاسمين الجليلين وما يليق بهما من الجلال وما معناهما

ثم يحتاج إلى بيان جميع الأسماء والصفات ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين دون غيرهما

فإذا قال: {مالك يوم الدين} يحتاج إلى بيان ذلك اليوم وما فيه من المواطن والأهوال وكيفية مستقره

فإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين} يحتاج إلى بيان المعبود من جلالته والعبادة وكيفيتها وصفتها وأدائها على جميع أنواعها والعابد في صفته والاستعانة وأدائها وكيفيتها

فإذا قال: {اهدنا الصراط المستقيم} إلى آخر السورة يحتاج إلى بيان الهداية ما هي والصراط المستقيم وأضداده وتبيين المغضوب عليهم والضالين وصفاقم وما يتعلق بهذا النوع وتبيين المرضي عنهم وصفاقم وطريقتهم فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله علي من هذا القبيل.

طبقات المفسرين

تفسير الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة:

(الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير)

أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جدا وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر ﷺ للحديث ولا أحفظ عن أبي بكر ﷺ في التفسير إلا آثارا قليلة جدا لا تكاد تجاوز العشرة، وأما علي فروي عنه الكثير

و عن أبي الطفيل قال: شهدت عليا يخطب وهو يقول: "سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل"

وعن ابن مسعود قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن

وعن أبي بكر بن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤلا

وأما ابن مسعود ﷺ فروي عنه أكثر مما روى عن علي وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين؟ نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"

وأخرج أبو نعيم عن أبي البختري، قال: قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما

وأما ابن عباس ﷺ فهو ترجمان القرآن الذي دعا له النبي ﷺ :

"اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل":

وقال له أيضا ﷺ : "اللهم آته الحكمة" وفي رواية: "اللهم علمه الحكمة"

وعن ابن عمر قال: دعا رسول الله ﷺ لابن عباس فقال: "اللهم بارك فيه وانشر منه"
وعن عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال انتهيت إلى النبي ﷺ وعنده جبريل فقال له جبريل: إنه كائن حبر هذه الأمة فاستوص به خيرا
وعن عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن مجاهد قال: قال ابن عباس: قال لي رسول الله ﷺ "نعم ترجمان القرآن أنت"
و عن ابن مسعود، قال: "نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس"
و عن مجاهد قال كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه
وعن ابن الحنفية قال: كان ابن عباس حبر هذه الأمة
وعن الحسن قال: إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل
وكان عمر يقول: "ذا كم فتى الكهول، إن له لسانا سؤلا وقلبا عقولا "

وعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن {أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما} فقال: اذهب إلى ابن عباس فسله ثم تعال أخبرني فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات فرجع إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن قد علمت أنه أوتي علما

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا إن لنا أبناء مثله فقال: عمر إنه ممن علمتم ودعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح} فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، قال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول! "

وعن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب} ؟ قالوا الله أعلم فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء فقال: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل فقال عمر أي عمل. قال ابن عباس: لرجل يعمل لطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله

وعن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب جلس في رهط من المهاجرين من الصحابة فذكروا ليلة القدر فتكلم كل بما عنده فقال عمر: مالك يا بن عباس صامت لا تتكلم! تكلم ولا تمنعك الحداثة قال ابن عباس: فقلت يا أمير المؤمنين، إن الله وتر يحب الوتر فجعل أيام الدنيا تدور على سبع وخلق أرزاقنا من سبع وخلق الإنسان من سبع وخلق فوقنا سموات سبعا وخلق تحتنا أرضين سبعا وأعطى من المثاني سبعا ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع وقسم الميراث في كتابه على سبع ونقع في السجود من أجسادنا على سبع وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعا وبين الصفا والمروة سبعا ورمى الجمار بسبع فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان فتعجب عمر، وقال: وما وافقني فيها أحد إلا هذا الغلام الذي لم تستو شؤون، رأسه ثم قال: يا هؤلاء من يؤديني في هذا كأداء ابن عباس!

وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة وفيه روايات وطرق مختلفة فمن جيدها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه قال أحمد بن حنبل "بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا" أسنده أبو جعفر النحاس في ناسخه

قال ابن حجر: وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وهي عند البخاري عن أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر كثير بوسائط بينهم وبين أبي صالح وقال قوم لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير
قال ابن حجر: بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك

وقال الخليلي في الإرشاد: تفسير معاوية بن صالح قاضي الأندلس عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبي صالح كاتب الليث عن معاوية وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس قال: وهذه التفاسير الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ورواها مجاهيل كتفسير جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس

وعن ابن جريج في التفسير جماعة رووا عنه وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطي، عن عبد الغني بن سعيد عن موسى بن محمد، عن ابن جريج وفيه نظر

وروى محمد بن ثور عن ابن جريج نحو ثلاثة أجزاء كبار وذلك صححوه

وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحو جزء وذلك صحيح متفق عليه وتفسير شبل بن عباد المكي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قريب إلى الصحة

وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به

وتفسير أبي روق نحو جزء صححوه

وتفسير إسماعيل السدي يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس وروى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدي

فأما ابن جريج فإنه لم يقصد الصحة، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم

وتفسير مقاتل بن سليمان، فمقاتل في نفسه ضعفوه وقد أدرك الكبار من التابعين، والشافعي أشار إلى أن تفسيره صالح انتهى كلام الإرشاد

وتفسير السدي الذي أشار إليه يورد منه ابن جرير كثيرا من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة

هكذا، ولم يورد منه ابن أبي حاتم شيئا لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد والحاكم يخرج منه في مستدركه أشياء ويصححه لكن من طريق مرة عن ابن مسعود وناس فقط دون الطريق الأول وقد قال ابن كثير: إن هذا لإسناد يروي به السدي أشياء فيها غرابة

ومن جيد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين وكثيرا ما يخرج منها الفريابي والحاكم في مستدركه

ومن ذلك طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير– عنه، هكذا بالترديد وهي طرق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا وفي معجم الطبراني الكبير منها أشياء وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب وكثيرا ما يخرج منها الثعلبي والواحدي لكن قال ابن عدي في الكامل للكلبي أحاديث صالحة وخاصة عن أبي صالح وهو معروف بالتفسير وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع وبعده مقاتل بن سليمان إلا أن الكلبي يفضل عليه لما في مقاتل من المذاهب الرديئة وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فإن الضحاك لم يلقه فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة عن أبي روق عنه فضعيفة لضعف بشر

وقد أخرج من هذه النسخة كثيرا ابن جرير وابن أبي حاتم، وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفا لأن جويبرا شديد الضعف متروك ولم يخرج ابن

جرير ولا ابن أبي حاتم من هذا الطريق شيئا إنما أخرجها ابن مردويه وأبو الشيخ بن حبان وطريق العوفي عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا والعوفي ضعيف لبس بواه وربما حسن له الترمذي ورأيت عن فضائل الإمام الشافعي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر القطان أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم قال: سمعت الشافعي يقول لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث

وأما أبي بن كعب رضي الله عنه

فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه وهذا إسناد صحيح وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيرا وكذا الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده.

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء اليسير من التفسير كأنس وأبي هريرة وابن عمر وجابر وأبي موسى الأشعري وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة وما أشبهها بأن يكون مما تحمله عن أهل الكتاب كالذي ورد عنه في قوله تعالى: {في ظلل من الغمام}
وكتابنا الذي أشرنا إليه جامع لجميع ما ورد عن الصحابة من ذلك

طبقة التابعين

قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس وغيرهم وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس انتهى.

- **فمن المبرزين منهم (مجاهد)**

قال الفضل بن ميمون سمعت مجاهدا يقول عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة وعنه أيضا قال عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيم نزلت؟ وكيف كانت؟

وقال خصيف: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد

وقال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به

قال ابن تيمية: ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم

قلت: وغالب ما أورده الفريابي في تفسيره عنه وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جدا

- **ومنهم (سعيد بن جبير)**

قال سفيان الثوري خذوا التفسير عن أربعة:

عن : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك

وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة : (عطاء ، سعيد بن جبير ، عكرمة ، الحسن)

كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك
وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير
وكان عكرمة أعلمهم بالسير
وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام

- ومنهم (عكرمة) مولى ابن عباس

قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة
وقال سماك بن حرب: سمعت عكرمة يقول: لقد فسرت ما بين اللوحين
وقال عكرمة: كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل ويعلمني القرآن والسنن
وأخرج ابن أبي حاتم عن سماك قال: قال عكرمة كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس

- ومنهم : الحسن البصري ، و عطاء بن أبي رباح ، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبو العالية ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية العوفي ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، ومرة الهمداني ، وأبو مالك ،

ويليهم.. الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في آخرين

فهؤلاء قدماء المفسرين وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة

ثم بعد هذه الطبقة أُلفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين
كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هارون
وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهويه وروح بن عبادة وعبد بن حميد
وسعيد وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين

وبعدهم ابن جرير الطبري وكتابه أجل التفاسير وأعظمها
ثم ابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حبان وابن المنذر في
آخرين وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم وليس فيها غير ذلك إلا ابن
جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط
فهو يفوقها بذلك

ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال بترا فدخل من هنا
الدخيل والتبس الصحيح بالعليل ثم صار كل من يسنح له قول يورده ومن يخطر
بباله شيء يعتمده ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانا أن له أصلا غير ملتفت إلى
تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير حتى رأيت من حكى
في تفسير قوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} نحو عشرة أقوال وتفسيرها
باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم حتى
قال ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك اختلافا بين المفسرين

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه

فالنحوي : تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته
كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر

والإخباري : ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي

والفقيه : يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي

وصاحب العلوم العقلية : - خصوصا الإمام فخر الدين- قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية
قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء فيه كل شيء إلا التفسير

والمبتدع : ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها أو وجد موضعا له فيه أدنى مجال سارع إليه. قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش من قول تعالى في تفسير: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} وأي فوز أعظم من دخول الجنة أشار به إلى عدم الرؤية

والملحد : فلا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله كقول بعضهم في {إن هي إلا فتنتك} : ما على العباد أضر من ربهم وكقوله في سحرة موسى ما قال وقول الرافضة في {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} ما قالوا وعلى هذا وأمثاله يحمل ما أخرجه أبو يعلى وغيره عن حذيفة أن النبي ﷺ قال "إن في أمتي قوما يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله"

فإن قلت: فأي التفاسير ترشد إليه وتأمر الناظر أن يعول عليه! قلت تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله. قال النووي في تهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله